العقل العربى بين عهدين

قبل الإسلام وبعده

بقلم عبد اللطيف المغربى

المدرس بمعهد التربية للبنات

١

تمهيد

ترى طائرين ، أحدهما درج فى بيئة تجهم لها الحظ ، وسطا عليها الكثير من مظاهر الجدب ، فتلفيه أعجف هزيلا ، بادى الضر أربد اللون بكىء الصوت طويل الصمت ، كأنما نفضت عليه بيئته ما فيها من جفاف وكدرة ، ونفثت فيه ما ضمنته من سكون ورهبة ، فهو صورة لها ناطقة ، وسمة من سماتها ماثلة .

والآخر نما فى بيئة خصبة مزهرة ضاحكة مستبشرة ، حباها الله بما شاء من دوح باسق وزهر ناضر ، وظل ندى وماء روى ، وحب نثير وثمر وفير ، فتلحه مرحا طروبا يختال فى بردة منمقة دبجتها يد القدرة بألوان زاهية ، توائم روح البيئة وتعتصم بمالها من خصائص ، وتراه ينصت فى رفق ودعة الى وحى جمالها الساحر ، فيجمع منه ماشاء فى نفسه الصافية ، ويرسله لحنا عذبا جذابا ، يقيد الأسماع ويستهوى الألباب ، فاذا بك من صورته وصوته فى غفوة من الأحلام الرائعة ، وجلوة من الأمانى الوادعة .

وانظر أعزك الله كيف أقللت فى وصف الأول ، لضن بيئته بالسمح من القول ، وأطلت فى الثانى ، لخصب بيئته وجودها بما رجوت من

وصف ، وهذا يشعرك بما بين البيئتين من تباين .

اذا بلوتَ هذا الذى قلتُه ، وقدرتَ له أثره ، استطعت أن تشرف معى على العصرين الجاهلى والإسلامى ، وتتخطى رقاب الأيام حتى تلمس أثرهما فى العقل العربى . وإنا لموغلون بك على ضوء هذه التقدمة فى سبيلهما حتى نوافى مارسمنا من غاية .

العصر الجاهلى

أقام العرب فى هذا العصر فى صحراء واسعة الأطراف ، سرت فيها عوامل الجدب فقبضت عنهم الكثير من متع الحياة وزهرتها ، فليس لهم من الطعام إلا ما يحفظ عليهم حشاشة النفس ، من ألبان الغنم والإبل والتمر ، فعاشوا فى ظل القناعة لم تثرهم عوامل الطمع ، ولم يدفعهم إلى ماوراء ذلك استشراف حتى صح لقائلهم أن يقول :

وما العيش إلا نَوْمة وتبطّح وتمر على رأس النخيل وماء

وليس لهم من جمال هذا الوجود إلا ما تطالعهم به صحراؤهم من رياح عاتية ، وشمس زاهية ونهار أبلج وليل أليل ، تنبعث من جوانبه أضواء نجوم صافية ، تتلألأ فى قبة السماء كأنها عيون من ذوب اللجين تتدفق ، واتساع مدى كأنه صفحة الأزل ، أو منفسح الأمل ، وطير سانح ووحش نافر وأوهام وأمانى يثيرها ما اشتملت عليه هذه المظاهر من سحر فياض ، وجلال رائع .

ولحياة الصحارى أسرار لا يفقهها الا من تعرّف إليها . وترفق فى الاندماج فيها ، حتى توحى إليه بخبيئها ، وتشافهه بمكنونها :

إن الذى حرُم الصحارى منظرا ألقى عليها للجلال شعارا
روحية صدفت عن الدنيا وما فيها وأضحت للشعور مثارا

هذه الحياة المحدودة أفاضت على العقل العربى صورا وألوانا ، هى أشبه بها : من شعور قوى وافق ، وعاطفة جياشة متقدمة ، ونظرة سَمْحة مواتية قريبة الغور ، لاتتغلغل فى استقصاء ولا تعليل ولا تفريع ولا قياس ، ولاتهيم بصنعة ولا زخرف،ولا تعرف مواربة ولامداجاة.

على هذا المنهج طفق العقل العربى فى العصر الجاهلى يعمل فى رفق وهوادة ، ويستمد حياته من الفطرة وعفو الخاطر وقوة الشعور ، التى تملكت العرب فكانت أكبر مظهر من مظاهر حياتهم ، وأحفل منبع يفيض منه الشعر العربى إذ ذاك ، وظلت هذه القوة صاحبة السلطان فى تصريف حياتهم ، وأظهر ما تتجلى قوية حادة فى مواقف الفروسية ، ومجالس السطوة وميادين الغلبة ، فتدفعهم إلى الحروب زرافات ووحدانا ، وتؤرث نارها بينهم ، فتثير كوامن الأحقاد والضغائن منهم ، فاذا الحرب قائمة على ساقها تعركهم عركا ، وتبيد جموعهم ، حتى إذا عم الخطب وطم الأمر ، تنادى الخطباء وتصايح الشعراء بالدعوة إلى حقن الدماء وحفظها فى أهبها ، بأقوال مؤثرة تلمس من الثائرين مواطن الإحساس ، فإذا النفوس عائدة إلى رشدها ، والسيوف قارة فى أغمادها ، ووجوه الخيل منصرفة إلى مرابطها ، والألوية مطوية ، والعهود مرعية .

وهكذا حياة الشعور فى أمم الصحارى والوهاد والنجاد ، تتغنى بالفروسية وتتمدح بمظاهر البطولة . وترى للإغريق فى هذا السبيل شبها بالعرب ، فالحروب كانت بينهم فى العصور الأولى مظهرا كبيرا من مظاهر حياتهم ، وفى ألعابهم الأولمبية مجال واسع لتمجيد البطولة،وشاعرهم الأكبر هو ميروس صاغ إلياذته العظيمة تخليد الحياة أبطالهم ، والتغنى بمآثرهم فى حروب تروادة الشهيرة ، ولتشابه شبهى الجزيرتين الإغريقى والعربى تشابه قُطّانهما فى قوة الخيال وسموه ، وتدفُّق الشعور وتلهبه .

ولهذا غبر العصر الجاهلى وجل آثاره وليد العاطفة والشعور والفطرة ولم يظهر للعقل العربى فيه مظهر رائع من فلسفة أو تشريع اجتماعى أو نواح فلسفية عظيمة إلا ما جاء عفوا من خلجات نفسية تتراءى فى حكمة أو مثل فى أقوال زهير وأكثم بن صيفى وقسّ بن ساعدة الإيادى ومن إليهم .

العصر الاسلامى

ثم أشرقت شمس الاسلام فى هذا الأفق وضاءة باسمة على مواطن الفطرة والشعور ، فأثارت دهشة وعجبا ووقف الناس حيالها مضطربين حيارى ، وتواقعوا بين عاملين : ماض له عاداته وتقاليده فالنفوس بفراقه ضنينة ، ومستقبل يبهرها بسره وروعته فهى منه خائفة وجلة . ولكن سرعان ماشق الاسلام طريقه إلى هذه النفوس الصافية ، فامتزج منها بالفطرة المواتية فأنبتت شكولا من التعقل بهرت بجلالها وصدقها وسموها الانسانية ، ودوّت فى أذن الوجود ، فكانت خير ما انعقد عليه رجاؤه وتكشفت عنه آماله ، وكذا التربة الكريمة إذا خالطها الماء العذب اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

وكان رافع لواء النهضة العربية الحديثة فخر الوجود ومبعث الهداية ، ومشرق الحكمة ومنار الرحمة ومعين الفيض الإلهى محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد أرسل صوت الحق مدوّيا فى أرجاء الجزيرة العربية ، فتهاوت لرهبته الأصنام ، وسطعت شمس الهداية فى الجزيرة العربية رفيقة وديعة ، فانقشعت بها الخرافات والأوهام ، ومشى جلال الإسلام إلى النفوس فطهرها ، وإلى العصبية فأذابها ، وإلى الأحقاد فمحاها ، فاذا القلوب فى ساحاته متضامة ، والأيدى بعهوده متصافحة ، والنفوس فى حبه متفانية ، والعقول فى أفقه متسامية .

خالطت هذه التعاليم الجديدة الرائعة التى جاء بها الاسلام ، أسمى قوة من العرب وهى قوة الشعور التى غلبت عليهم ، وامتزجت بها فكبحت جماحها وخففت من حدتها ، واتجهت بها نحو العقل المتئد الرزين الناظر إلى الأشياء بحكمها لابصورها ، وبعللها لا بنتائجها ، فخطا العقل العربى خطوة تدهش كل باحث .

وكان أول الميادين التى جرى فيها العقل العربى إلى أبعد غاياته الميدان الدينى ، وهذا أمر منظور أن يكون لما للدين القويم من أثر فى نفوس المسلمين ، ولأنه عماد هذه النهضة المباركة التى أدالت الأيام بها من الفرس والروم للعرب ، ومكنت لهم فى مناحى الأرض وأذاعت فضل العرب على الانسانية فى مسامع الدنيا .

سلامى على تلك الخلائق إنها مسلمة من كل عار ومأثم

ولا تكاد تدنو من التاريخ حتى يملأ أذنيك صوت الثناء على فحول الفقهاء ، وقادة الشرع وحفظة الدين ، وتستعرض صورا من ثمرات قرائحهم فاذا بك فى عالم يزخر بالفضل والنبل والذكاء والاخلاص ، واذا رجعت لتطبيق ذلك على المقدرة الانسانية هالك الأمر وأعوزك الرأى وأعجزك السبر ، ولا تجد أمامك آنئذ إلا أن هذا نفحة الهية خص الله بها رجال دينه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولو ذهبنا نسرد عليك أسماء هؤلاء الأبطال من الفقهاء الذين خدموا الاسلام ، وسموا بالعقل العربى فى حكمة التشريع إلى منزلة تنحسر دونها الأبصار ، وتتخاذل قبل بلوغها العزائم والآمال ، لأعيانا الاستقراء ، وعز علينا المنال ، ولكنا نذكرك منهم ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، بعبد الله بن عباس وابن مسعود والحسن البصرى والأئمة الكرام مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل ومحمد

وأبى يوسف مقورى مذهب أبى حنيفة وغيرهم ، وكل واحد من هؤلاء أمة بذاته ، ولفقهاء المذاهب مناظرات وجدل بلغا قمة التفوق والنبوغ ، واستوليا على أمد السبق وسيطرا لهذه العقول الخالدة بآثارها سطور المجد نيرة على صفحات التاريخ .

ونريد أن نعرج بالقارئ الكريم على حياة قد تشعبت من الناحية الدينية ، وهى حياة الفرق الإسلامية من المعتزلة والجبرية وأهل السنة وغيرهم ، وهنا تفجؤنا حياة هائلة ترتاع منها القلوب ، وترى العقل العربى فيها قد طغا وتجبر وأخذ بضروب من الجدل والمناظرة إن أثارت أسفك حيناً بموضوعها ، فهى حرية أن تثير إعجابك بما فيها من قوة جدل وحسن منطق وحاضر بديهة وشدة صولة ، وأصبح الخلاف بين هذه الفرق معترك نضال تتوائب فيه العقول ، وتتجمع فيه القروم شاكية السلاح ، فعجت الحياة الإسلامية فى بغداد والكوفة والبصرة وفارس والمغرب والشام ومصر بأصوات هذه الفرق ، ومشى صائح الفرقة فى الرأى بينها ، وعقدت مجالس الجدل فى دور الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء للنضال والمغالبة حتى ساءت الحال وعمت الفتن ، واندس بين هذه الفرق كثير من الدساسين وشذاذ الآفاق ومحى الكيد للاسلام ، فساقوا إليه أقوالا وشبها وأضاليل ونزعات من عقائدهم القديمة يرومون بها أن يشوهوا من جماله ويغضوا من جلاله ، ويفسدوا على أهله أمرهم ولكن هذا الدين الالهى المتين صد كل ماهو دخيل ليس منه صدا عنيفا ورمى به فى هوة الضياع ، وانتفض انتفاضة الظافر الموفق ، فسلم من هذه الفتن ومضى فى سبيله مشرقا وضاء . وقد تركت هذه الفرق تراثا عقليا هائلا ، وهو على مافيه من غث وسمين ذخيرة تفخر بها العربية ، وتعتز

بما فيها من صور عقلية عميقة لا ترى لها فى كثرتها وقوتها نظيراً فى الأمم الأخرى .

ونشرف على النهضة اللغوية فنراها تسامى الناحية الدينية ، بوفرة رجالها وصدقهم فى خدمة اللغة وحسن الولاء لها والحدب عليها ، فترى رجال النحو وقد اكتظت بهم الكوفة والبصرة وبغداد وبلاد فارس والشام ومصر ، وقد تواتروا طبقات كل منها يبنى ويزيد على من سبقه حتى بوبوا النحو وأكملوا ، وقوموا أسبابه وعلله وأتوا فى ذلك بما يعد فى عالم التفكير فتحاً مبيناً وتوفيقاً يفوق كل أمل وتقدير ، ولا نحب أن نمر بك دون أن نشير إلى بعض زعمائهم العظام كالخليل بن احمد الفراهيدى سيد رجال اللغة وعالمهم الفذ ، وواضع نواة المعاجم العربية بطريقة تشهد له بالذكاء النادر ، وواضع علم العروض ومستنبط دوائره على نظام عجيب ، وهيهات أن نجد من القول ما نوفيه به حقه ، ويكفى لبيان قدره أن يقول فيه بعض العلماء « إنه لا يجوز على الصراط بعد الأنبياء عليهم السلام أحد أدق ذهنا من الخليل » ونذكر بعده من رجال العقول الفذة فى النحو سيبويه تلميذه وحافظ تراثه ، ثم الأخفشين والكسائى والفراء وغيرهم .

ومن رجال اللغة العاملين على حفظ غريبها ومأثورها وأشعارها أبو عمرو بن العلاء والأصمعى وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصارى وأمثالهم ممن امتازوا برجاحة العقل وقوة الحفظ كحماد الراوية ، ولقد أدى هؤلاء العلماء الأمانة وصدقوا النية وتفانوا فى أداء واجبهم ، حتى أقاموا للغة حصونها ورفعوا منارها ، وراحوا إلى الله بجباه ناضرة .

بهذه العجالة السريعة واللمحة الطارئة ، أصور العقل العربى فى بعض

مناحيه ، ولا أكتم القارئ أنى اقتضبت فيها القول اقتضابا ، وأشرت فيها إلى مظاهر العظمة للعقل العربى إشارة ، ولو أننى رمت أن ألج كل ناحية على ما ينبغى لها من الحق والنصفة ، لندّ بى الأمر عن الغاية ولاحتملت من النصب مالى باحتماله يدان ، ولكنى أردت بهذا أن أنشر صفحة يسيرة من تاريخ الآباء والأجداد ، فيعتز بهم الناشئون ويعلموا أن ماضى أسلافهم يفيض قوة ومجداً وعزا ، وأنه جدير بالبحث والتنقيب

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وفى المقال الآتى سنعرض بحول الله لمظاهر العقل العربى فى الأدب وهو بحث طريف أرجو أن تكون له متعته ولذاذته — وإلى الملتقى .